حظ بلاد العرب

خمدت ثورة اليمن او كادت . والبلاد على ما وصفنا يدل تاريخها وتدلُّ آثارها على انها كانت بلاد خير ومير ولكن هل تسترجع مجدها السابق . وما يقال فيها يقال في الطائف ونجد . ظهر الاسلام في جزيرة العرب لكن جزيرة العرب لم تستفد منهُ حالما ترعرع ملوكهُ جعلوا عواصمهم دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة . بنوا عواصم جديدة وفضلوها على مكة والمدينة وجعل اهل مكة يعيشون من الصدقات فضعفت همتهم ولم تقم لهم قائمة

وهذا شأن النصرانية نشأت في اورشليم وبلاد فلسطين لكن اورشليم وفلسطين لم تستفيدا منها والآن ترى عواصم النصرانية منتشرة في الدنيا الاَّ في عندها

نبهنا لهذا الموضوع فصل قرأناهُ في شرح التبريزي لديوان الحماسة . قال في شرح هذه الابيات

ألا هل اتى الانصار ان ابن بحدلٍ حُمَيْداً شفى كلبًا فقرَّت عيونها
وانزل فيها بالهوانِ ولم تكن لتُقلعَ الاَّ عند امرٍ يُهينها
فقد تُركت قتلى حُمَيْد بن بحدلٍ كثيراً ضواحيها قليلاً دفينها
فانَّا وكلبًا كاليدين متى تقع شمالك في الهيجا تعنّها يمينها

قال ابو رياش انهُ لما كانت فتنة ابن الزبير (سنة ٧١ للهجرة) كان عبد الملك بن مروان يقاتل مُصعَب بن الزبير وكانت قيس زبيرية . وان زُفر بن الحارث الكلابي وعمير بن الحباب السلمي كانا يغيران على كلب وكانت ابناء القيسيات من بني امية يفخرون على ابناء الكلبيات بما تفعل بهم قيس في البدو والحضر . فقال خالد بن يزيد بن معاوية للكلبيين هل رجل فيهِ خير يغير على بادية قيس واكفيهِ تباعة السلطان فان ابناء القيسيات قد اهلكونا بالفخر علينا بما تفتك قيس في الجاهلية والاسلام . فقال حميد بن بحدل خال يزيد بن معاوية انا لها ان كفيتني تباعة السلطان . فقال خالد انا اكفيكها ان فعلت . قال وكيف تكفينيها . قال ارسلك مصدقًا (جامع الصدقة) على باديتهم واكتب لك عهداً على لسان عبد الملك ابن مروان بأخذ الصدقة منهم حتى تنال حاجتك على غرة منهم ثم تنصرف . فقال لهُ حميد هذا الوجه الذي تنال بهِ كفايتي

فكتب خالد بعد مقتل ابن الزبير لحميد بن بحدل عهداً على صدقات اهل البدو فيهِ اخذُ

الصدقة ممن اتى من اموال المسلمين . فسار بجمع غير كثير من قومه حتى ورد على بني عبد ودّ وبني علي بجنوب دومة وخبت فاستخلفهم على قيس واخبرهم بالذي قال خالد وفارقهُ عليه. وسار بناس معهُ ذوي عدد فادرك ناساً من بني فزارة متفرقين للنجعة فاصاب اوّلهم زيد ابن عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وكان ابن ام ولد وكان رجل صدق . وكانت بنو بدر ابوا ان يزوّجوهُ فتزوج في بني بوّلان من طي من اهل الجبلين فولدت لهُ بنين . فادركتهُ كلب وهو آخر بني فزارة وليس معهُ الاّ بنوهُ وهم صغار دلّهم عليهِ إذانهُ بصلاة الفجر فذبحوهُ عدوةً واخذوا إبلهُ مائةً . ثم لقوا بجانب الاجفر خمسة من بني عبس بن عيينة بن حصن خلف اهلهم فقاتلوهم قتالاً شديداً وشغلوهم عن الناس حتى امسوا ثم ظهروا على الفتية ولم يكن معهم سلاح ولا خيل فاساءوا الضرب فيهم بالسيوف حتى حسبوا انهم قتلوهم وقطعوا عراقيب نشرة بن عتبة ولم يقطعوا عجاءهُ . فتركوا الفتية وهم يرون انهم قتلوهم فارسل الله الديور فدفنتهم ودحست جراحهم ثواباً فشفاهم الله بذلك وكان اجود اساة في الارض

وسار الكلبيون من عشيتهم حتى اصبحوا الغد بجانب الماء فادركوا عبد الله بن عمار ابن عيينة بن حصن يسير باهلهِ وليس معهُ رجل غير ابنهِ الجَعد بن عبد الله . فلما نظر اليهم الجعد لبس سلاحهُ وركب فرسهُ فنزلوا واعتزل الفتى . فقال لهم الشيخ عبدالله بن عمار ما انتم قالوا نحن سعاة بعثنا عبد الملك بن مروان على صدقات من لقينا من العرب . قال أمعكم عهد قالوا نعم قال فاقرئونا إياهُ فاخرجوا سجلّ مسجّل من عبد الملك بن مروان لحميد بن حدل على صدقات من اتى من العرب والبدو من اعطاهُ وكتب لهُ فقد برئ ومن عصاهُ فقد عصى الله ورسولهُ واميرالمؤمنين ونزع يداً من الطاعة

فقال عبدالله بن عمار سمعاً وطاعة هذه صدقة مالي فخذوها . فقالوا وما تغني عنا صدقة مالك . قال فما اصنع . قالوا تطلب قومك فزارة فتضمها فتأتينا بصدقاتها وتواعدنا مكاناً من ارضك تقيم لك بهِ حتى تأتيَ بصدقات بني فزارة

قال ما اقوى على ذلك ما فزارة مقيمة ولا مجتمعة ان اوطأ بالمشاجع واني لآخرها رحلاً وانتم اقوى على طلبها مني قد سرتم ابعد من ذلك من الشام حتى ادركتم آخرهم بالقوى وما انا بالشاب السنّ وما معي من بني واهلي غير غلام واحد وانتم مدركون كل يوم منهم صرماً حتى تدركوا اولهم انما هم متجمعون يرعون حيث ادركوا المرعى

قالوا بل هم قارّون بالصدقة من امير المؤمنين مقرّون للطاعة ملازمون للعصبة

قال كلاّ لعمري انما هم لآهل سمع وطاعة وانما هم متجمعون وهذا اقرب ما كنتم منهم

قالوا ما لك بد من ان نطلبهم ونكفيناهم . قال ما اقوى على ذلك وهذه صدقة مالي خذوها . قالوا وكيف نعطيها الصدقة وتسمع وتطيع وهذا ابنك بكارنا . قال ما عليكم من ابني خذوا صدقة مالي وانصرفوا ان كنتم مصدقين . قالوا هذا تحقيق ما كان من قتالكم مع ابن الزبير . قال ما فعلنا انما نحن اهل بدو نؤدي الصدقة الى من قام . قالوا ان كنت صادقاً فانزل ابنك . قال وماذا عليكم من ابني انهُ رأى رجالاً وخيلاً وسلاحاً فخاف على دمهِ . قالوا فلينزل وهو آمن

فاتى الشيخ ابنهُ فقال لهُ انزل فقال يا ابَهْ اني ارى عيون الذبحة اعطهم ما اردت ودعني امنع دمي . فرجع اليهم وقال دعوهُ وخذوا صدقتكم وانصرفوا فانهُ قد اشفق على دمهِ . قالوا ما نحن بقابلين منك شيئاً حتى ينزل . فقال قد ابى ان ينزل وما لكم في نزولهِ من حاجة فخذوا صدقتكم وانصرفوا . قالوا ابيت الا نزوعاً الى المعصية يا غلامُ هلمَّ الدواة والقرطاس قد ادركنا حاجتنا نكتب الى امير المؤمنين انَّا وجدنا ابن عيينة قد حال بيننا وبين بني فزارة . قال لا تفعلوا فاني لم افعل . فكتبوا الى عبد الملك انا قدمنا على بني فزارة فوجدنا ادناهم عبد الله بن عمار بن عيينة ووجدناهُ على المعصية فحاربناهُ وحال بيننا وبين فزارة . ثم ارسلوا بهِ راكباً الى عبد الملك . قال يا قوم لا تفعلوا ولا تدعوا عليَّ ما لم افعل وانا اذكركم الله ان تعصوني وانا طائع سامع . فقالوا ان كنتَ كما تقول فانزل ابنك فقال انَّ والله قد أربنا بكم افهو آمن ان نزل . قالوا نعم . فاخذ عليهم العهود والمواثيق العظام لئن نزل لا يريبوهُ ولا يجاوزوا بهِ اخذ صدقتهم . فقام الشيخ الى ابنهِ وقال بهلني الله ان لم تنزل . فنزل وضرب وجه فرسهِ ورمى برمحهِ وقال افَّ لك بعد اليوم . واقبل بهِ ابوهُ حتى اتاهم بهِ فعاتبوهُ وقالوا دخلتَ في المعصية وشققتَ العصا وكابرت السلطان . قال ما فعلت ولكني كنت قد اغربتني عشيرتي وذعروا عني ورأيت خيلاً ورجالاً وسلاحاً فاشفقت منها

قالوا خذوهُ بعد ما عاتبوهُ ساعة فاقتادوهُ الى الصفا ليذبحوهُ عليهِ فالتفت الى ابيهِ فكلم اليهِ بشدقهِ يذكرهُ انهُ قد اقادهُ القوم فقال الشيخ ما أنسَ لا انسَ كلمة الجعد اليَّ وانا اقدتهُ القوم

فذبحوهُ على الصفا وضربوا الشيخ ضرباً شديداً حتى ظنوا انهم قتلوهُ ثم انصرفوا وزعموا ان فرس الجعد لم تزل تبحث على دمهِ حتى ماتت

ثم مر الكلبيون على ناس من بني مازن من بني فزارة في أخريات الناس فاصابوا منهم ما اصابوا ثم انصرفوا راجعين على اثرهم . فلاحقت الركبان واخبرت الناس ما كان . فركب

خالد بن دثار بن كريز بن قطبة بن سيّار الى عبد الملك فاخبره بالذي فُعل بهم وليل منهم فقال عبد الملك كم قتل منكم فسمّى لهُ عدداً اكثر ممن قتل منهم فقال الدية اخرجها لك من اعطيات قضاعة . فقال والله لا تأخذ من اعطيات قضاعة ثمن دمائنا فقال لا بأس أعطيك نصفها من بيت المال فان وفيتم الى قابل اعطيتكم النصف الباقي ولا ارى ان تفوا فيقال ان عبد الملك حرّضهم بهذه الكلمة . فقال زُفر بن الحارث الكلابي خذوا ما طاب لكم واتخذوهُ قوة فاذا خرجتم فليس لابن الزرقاء عليكم امرة

ثم اقتتلت بنو قيس وجرو كلب فدارت الدائرة على بني كلب وفي ذلك يقول ابن مسهر

وقعنا وقعةً برؤوس كلب شفت قيساً واخفرت الاميرا

وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فغضب غضباً شديداً وكتب الى الحجاج بن يوسف وهو على الحجاز والطائف واليمن ان اركب الى بني فزارة فلا تترك فيها عشكاً الاّ قتلتهُ

هذا كان حال العرب في صدر الاسلام يقتل بعضهم بعضاً خدعةً او اخذاً بثار وحكامهم لا يعبأون بذلك بل يأمرهم الخليفة ان يتخوا فيهم ولا يفركوا منهم احداً وقد مرّت على جزيرة العرب الف وثلثمائة سنة وقلما صارت حالها اصلح مما كانت لبعدها عن طرق التجارة وقلة اختلاط سكانها بغيرهم من امم الارض الاّ بالذين يأتونها لغرض ديني . فهل يراد ان تبقى كذلك والبلدان كلها آخذة في النمو والارتقاء او تنقض الحواجز التي تمنع دخول الغرباء اليها ويغرى سكانها باتباع اساليب الحضارة الحديثة . هذه مسألة حرية بالنظر والاهتمام ولا بدّ من حلها دينياً قبلما تحل سياسياً لانهُ ان لم تفتح ابواب البلاد لكل من يريد دخولها فالحالة التي استمرّت عليها الفاً وثلثمائة سنة يبعد ان تحول عنها

واذا فتحت البلاد للتجارة فلا يمضي وقت طويل حتى تنمو زراعتها حيث البلاد صالحة للزراعة كما في سهول نجد والطائف واليمن ثم تدخلها الصناعة وتنمو فيها حسب استعداد البلاد الطبيعي لها من حيث وجود القوة والمواد الاصلية . ولا يبعد ان تعود طريق تجارة الهند اليها فتمرّها سكة الحديد من السويس الى شمال خليج فارس ومن جدّة الى جنوبه كما كانت تمرّها طريق القوافل في غابر الزمان وحينئذٍ لا تبقى حاجة لارسال الصدقات الى اهالي مكة والمدينة والاّ ماتوا جوعاً بل يعودون كما كانوا قبل الاسلام وقبل سيل العرم تجاراً كثيري الاكتساب يغنون و يغنون و يستغنون عن مصادرة الحجاج وعن كل متصدق